مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

أدب الطبيب
اسحاق بن علي الرهاوي

تحقيق: الدكتور كمال السامرائي
والدكتور داود سلمان علي

مراجعة: الدكتور عبد الكريم أبو شويرب

تمهيد:

في أيام خلافة المقتدر بالله الخليفة العباسي ببغداد، وبالتحديد في سنة 319 هـ. وصل إلى علمه أن رجلاً مريضاً قد مات نتيجة خطأ ارتكبه من كان يشرف على علاجه. فأصدر الخليفة أمراً إلى المحتسب أن يمنع كافة الأطباء من مزاولة المهنة إلاّ بعد أن يمتحنهم ويجيزهم سنان بن ثابت النطاسي المعروف في وقته.

وكتب الخليفة رقعة بخطه إلى المحتسب تنظم تعيين الأطباء وامتحانهم وإبعاد المنتحلين منهم. وهكذا قام سنان بامتحان ثمان مائة ونيف وستين طبيباً على جانبي مدينة بغداد.[1]

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، بيروت، 1965، ص/ 302.

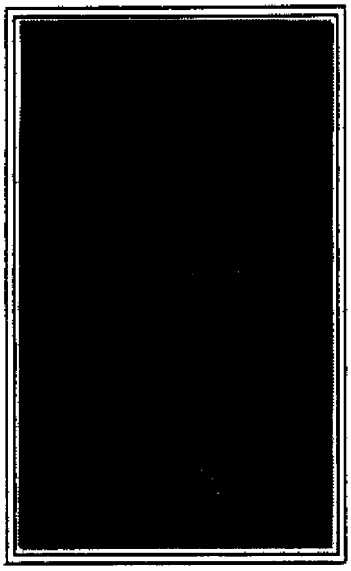

ولهذه القصة دلالات كثيرة أهمها أنها توضح ما وصلت إليه بغداد من اكتظاظ في السكان المتطببين، وحاجة الناس إلى الطبيب والصيدلاني والمستشفيات. وكذلك تبين لنا التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية من حيث نظام المحتسب الذي يراقب سائر المهن والحرفيين ووضع نظام لامتحان الأطباء قبل بدئهم في مزاولة المهنة حتى لا يدخلها مشعوذ أو دجال أو متطفل على ميدان الطب.

وكتاب أدب الطبيب يدخل ضمن إطار تنظيم المهنة وتثقيف الأطباء حول آداب وصعوبات هذه المهنة، ويوضح الصفات التي يجب أن يتحلى بها الطبيب أمام وبين كل من يحيط به من مرضى وزوار وممرضين وغيرهم.

وصدور مثل هذا الكتاب يجسد محاولات بعض الأطباء العرب دراسة ونشر التراث الطبي العربي بغرض التعريف به وربط جذور الحاضر بالماضي وإظهار مآثر وإبداع الأوائل في هذا المضمار.

كان هذا العمل في السابق أمراً مقتصراً على مجهودات المستشرقين ونتيجة تنقيبهم وبحثهم الدقيق في مكتبات العالم المختلفة، واعتاد القارىء أن يجد مثل هذه الكتب صادرة عن ليبزغ وأكسفورد وفرانكفورت وغيرها.

ومنذ الصيحة التي أطلقها الطبيب المصري عبد المنعم التطاوي سنة 1924م الذي اكتشف وصف الدورة الدموية الصغرى في كتاب التشريح لابن النفيس بينما كان (التطاوي) يحضر للدراسات العليا بألمانيا، ومنذ ذلك الوقت بدأ اهتمام الأطباء العرب بهذا التراث بحثاً ودراسة وتنقيباً وربط معلومات الماضي بنظريات العلم الحديث.

والطبيبان اللذان قاما بتحقيق هذا المخطوط من الأطباء المعروفين في مجال الطب والبحث في التراث الطبي العربي حيث إن لهما العديد من الكتب والمقالات والمساهمات في الندوات العالمية التي تناقش هذا الموضوع.

يقدم المحقق أولاً في مقدمة الكتاب تعريفاً بكلمة أدب ويقول إنها تعني سلوك وأخلاق المهنة وإنّ هناك في التراث العربي العديد من المؤلفات حول ما يجب أن يكون عليه أرباب بعض المهن، ومن ذلك أدب القاضي وأدب الملوك وأدب النديم. . وغيرها مثل أدب الرحلات وأدب الجليس، وإن أول من ألف في أدب مهنة الطب والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الأطباء هو أبو الأطباء أبقراط (المتوفى سنة 377 ق.م). حيث إن له ثلاثة كتب حول هذا الموضوع هي: ناموس الطب وترتيب الطب وكتاب العهد، وهذا الأخير يتضمن قسم أبقراط اليمين التي يقسم بها خريجو الطب في بعض كليات الطب في العالم. وينصح أبقراط الطبيب أن يكون دمث الأخلاق، ليّن الطبع، سمته التواضع مع زملائه ومرضاه، وما يجب أن يكون عليه من قيافة لائقة ونظافة اليدين والثوب واللسان، وعدم وصف الأدوية الضارة أو القاتلة أو المجهضة للأم الحامل وأن لا يفشي أسرار المرضى ولا يطمع في أموالهم أو حلالهم.

ويورد المحقق نبذة حول حياة المؤلف: (إسحق بن علي الرهاوي) ويقول إن المؤرخ الوحيد الذي وثق حياة ومؤلفات المؤلف هو ابن أبي أصيبعة في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء. واسحق بن علي معاصر للطبيب يوحنا بن ماسويه (المتوفى سنة 243 هـ) وهذا يضع الرهاوي ضمن أطباء العرب في القرن الثالث الهجري ويذكر مجموعة مؤلفاته، وينسبه إلى مدينة الرها وهي حالياً مدينة أورفة قرب الحدود السورية العراقية التركية.

ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب إنه لاحظ أن الأطباء في زمانه قد جهلوا أصول مهنة الطب وكثر بينهم منتحلوها وأغرتهم المادة والترف فانحرف بعضهم عن شرف ونزاهة المهنة واتخذوها مطية لكسب المال، والتقرب إلى ذوي الجاه والسلطان، وغشوا الدواء، ولعبوا بعقول العامة والبسطاء بطرق خداع مختلفة، فرأى أن يضع هذا الكتاب تنبيهاً وتوجيهاً لهم لردهم إلى ما يجب أن يعملوه لإصلاح حالهم وتصحيح معلوماتهم بالعلوم الطبية وطرق ممارستها.

واستهدف الرهاوي من وضع هذا الكتاب إضافة إلى تعليم أداب المهنة

إبراز شرفها وعظيم ما يستفاد منها في حالتي الصحة والمرض، وما ينبغي للطبيب أن يكون عليه من حيث صلته بربه وإيمانه وثقته بالله، وأن من يتحلى بذلك يبعده عن الدنايا والخداع وابتزاز أموال المرضى، ويتحاشى ما يفسد صناعته سواء كان ذلك من جانبه أم جانب المرضى.

كما أن بالكتاب توجيهات ونصائح للأطباء والصيادلة والممرضين والمرضى وأهلهم، وأيضاً لمن يقوم بزيارة المريض وآداب هذه الزيارة، وما ينبغي أن يتحلى به كل واحد مما سبق خلال معاملته مع المريض حتى يتم الشفاء بعون الله على أحسن حال.

والكتاب ينشر لأول مرة عن مخطوطة وحيدة فريدة مصورة عن مكتبة السليمية (وليس السليمانية) بمدينة أدرنة بتركيا، وتاريخ نسخها هو 748 هـ. ولقد سبق ترجمة ونشر هذه المخطوطة باللغة الإنجليزية سنة 1967م. أي قبل أن يتم تحقيقها ونشرها من قبل الباحثين العربيين (د. كمال السامرائي و د. داود سلمان علي 1992) بربع قرن. وهذا يؤكد أهمية هذه المخطوطة من حيث تاريخ وأداب مهنة الطب.

لم يشر بروكلمان أو سزكين إلى وجود أي مخطوطة أخرى في العالم هي أخت لها أو نقلت منها أو عنها. وهي تقع في 112 ورقة وتحتوي الصفحة على سبعة عشر سطراً. قسم المؤلف الكتاب إلى مقالتين واثنين وعشرين باباً سأتناول فيما يلي ملخصاً لبعض الأبواب المهمة منها.

الباب الأول:

في الأمانة والاعتقاد الذي ينبغي أن يكون الطبيب عليه والآداب التي يصلح بها نفسه وأخلاقه.

بعد بضعة أسطر كمدخل إلى هذا الباب يقدم لنا تعريفاً للطبيب فيقول: «إن الطبيب حاكم في النفوس والأجسام، ولا يشك أحد في أن النفوس والأبدان أشرف من الأموال، لذلك ينبغي للطبيب أن يأخذ نفسه بالأداب والعلوم النافعة له في صناعة الطب».

وحول أسس إيمان الطبيب وأصول معتقداته وثقته بالخالق تعالى يقول: «إن أول ما يلزم الطبيب اعتقاده صحة الأمانة، وأول الأمانة اعتقاده أن لكل مكوَّن مخلوق خالقاً مكوِّناً واحداً قادراً حكيماً فاعلاً لجميع المفعولات بقصد محي مميتٌ ممرضٌ مشفٍ. أنعم على الخلائق منذ ابتداء خلقهم بتعريفهم ما ينفعهم ليستعملوه، وكشف لهم عما يضرهم ليحذروه إذ كانوا بذلك جاهلين.

والأمانة الثانية: أن يعقد لله جل ذكره المحبة الصحيحة وينصرف إليه بجميع عقله ونفسه واختياره فإن منزله المحب اختياراً أشرف من منزلة الطائع له خوفاً واضطراراً.

والأمانة الثالثة: أن يعتقد أن لله رسلاً إلى خلقه هم أنبياؤه أرسلهم إلى خلقه بما يصلحهم، إذ العقل غير كاف في كل ما يصلحهم من دون رسل، ما شاء وكيف شاء في الوقت الأصلح..

ويورد المؤلف بعض آراء فلاسفة الإغريق أمثال أبقراط وأفلاطون وأرسطو حول فلسفة كيفية وجود صناعة الطب، ثم يخلص إلى رأي جالينوس الذي يقول: «الأصوب عندنا والأولى أن نقول أن الله جل وعز خلق صناعة الطب وألهمها للناس وذلك أنه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن يدركه عقل الإنسان، لكن الله هو الخالق الذي هو بالحقيقة قد أكنه خلقه وذلك أنك لا تجد الطب أحسن من الفلسفة التي ترون أن استخراجها كان من عند الله تعالى بإلهام منه.

ويرشد الطبيب إلى أنَّ هناك ثلاث قوى في نفسه تتحكم فيه:

«أيها المحب للأدب إذا صحت أمانتك مما تقدم القول به من الإقرار بالله جل وعز ومن المحبة له والاعتراف بحقه والإقرار برسله، والتمسك برسائله فعليك بالعبادة له بما يرضيه، ولن تقدر على ذلك دون أن تصلح أخلاقك وتعدل أفعالك ولا يمكنك ذلك حتى تعلم أصول قوى النفس وهي ثلاثة قوى كما بين ذلك القدماء من الطبيعيين والأطباء. إن القوة الأولى هي القوة النفسانية وهي التي تتم أفعالها بالدماغ، والقوة الثانية هي القوة الحيوانية وأفعالها تتم بالقلب، والقوة الثالثة هي القوة الشهوانية وأفعالها تتم بالكبد».

ويختتم هذا الباب ببعض النصائح للأطباء:

«أنت أيها الطبيب يجب أن تبعد الأشرار من الأصحاب والتلاميذ، فإن جميع ما يأتيك من صحبك وخدمك منسوب إليك من قول وفعل. واعلم أن الفقر مع الحلال أصلح من الغنى مع الحرام، والذكر الحسن مع بقائه خير من نفيس المال مع فنائه. والمال قد يوجد عند السفهاء والجهال، والحكمة لا توجد إلا عند أهل الفضل والكمال. واجتهد أن يكون سرورك وحزنك جميعاً بتوسط وكن على ما زاد منها بتسلط. وتأمل حال النفس المتوسطة للأخلاق من هذا القول الذي أحكمته لك من كلام جالينوس وغيره من الحكماء...».

الباب الثاني:

«في التدابير المصلحة للأبدان وبها يصلح الطبيب جسمه وأعضاءه» يخصص المؤلف الجزء الأول من هذاالباب في أسباب المرض وطرق الوقاية وحفظ صحة الإنسان بواسطة تعديل أمزجة الجسم المختلفة بالغذاء الصحي والهواء المناسب وتدابير الوقاية بما يراه عقله ومنطقه السليم:

«فأما من تدبر بعقله الأمور، وتبع ما يأمر به عقله وشرعه، وسلك في طريقهما ومذهبهما فهو الفاضل الأديب وهو الإنسان بالحقيقة».

ثم يورد ملخصات موجزة حول وظائف أعضاء الجسم مثل الدماغ والكبد والقلب والأمعاء ولا يتأتى ذلك إلاّ بعد قراءة كتب الأوائل ودراستها بنهم وروية:

«واجتهد أيها الطبيب في معرفة ذلك واقتن علم أصول الطب من الكتاب الذي ألفه معلمنا جالينوس في تدبير الأصحاء. وعلى الطبيب أن يقرأ كتب الأوائل حول وظائف الأعضاء والتشريح ويتزود بمعرفة جيدة على جسم الإنسان».

على الطبيب أن يحرس حواسه ويحافظ عليها ولا يستعملها إلا في مصلحة العلم: «ويجب على الطبيب أن يحرس حواسه كلها ولا يستعملها إلاّ فيما يجلب النفع أو يدفع الضرر:

اللسان:

«فإن نطق نطق عن علم وتحصيل ولا يسمع منه لفظة مكروهة، وينبغي أن يتحفظ في ألفاظه خاصة في مجالس الملوك والرؤساء، فلا يسأل إلا عما يعنيه أمره ولا يجيب إلا عما سئل عنه».

العين:

«وكذلك يلزمه حراسة بصره، وذلك بأن لا ينظر إلى حرمة ليست له بمحرم نظر هو عنه غني، ويجتهد في أن يكون نظره دائماً إلى كتب الصناعة (الطب)، وفي ديوان شريعته فإن كتب الشرائع تقوم الأخلاق وتبعث على الأعمال المحمودة، وكتب صناعته تكسبه علماً بها».

الأذن:

ويجب على الطبيب حراسة سمعه، وذلك بأن لا يسعى إلى محادثة الجهال، ولا إلى استماع أقاويل الأشرار ومذاهب الأراء الرديئة، وحسم ذلك عنه هو بألاّ يجالس أهل هذه الأمور ولا يخالطهم ولا يجادلهم ما أمكنه، فإن تهيأ له مذاكرة الأفاضل وإلاّ كان الأنس بالوحدة والخلوة بالدرس له أعظم الأنس».

وهكذا يفعل مع بقية حواسه وأعضائه.

جدول العمل اليومي:

ينبه المؤلف الطبيب إلى أهمية الوقت وكيف يقسمه إلى أقسام حتى يستفيد بكل يومه في قضاء حاجاته الضرورية وحاجات المرضى ومن حوله ولكن أول شيء يقوم به بعد يقظته:

1 ـ **الصلاة**: «إن أول الأفعال التي ينبغي للعاقل أن يفعلها بعد قيامه من نومه ونظافة جسمه هو الصلاة فإن الشكر للمنعم والإقرار له بالوحدانية والخشوع بين يديه، إذ هو العلة لكل خير والقادر على كل فعال من الواجب عقلاً وشرعاً والإقلاع عن العيوب مع نقاء القلوب بمحص الذنوب ويجيب

الدعوات ويوصل إلى كل محبوب فلذلك وأمثاله ينبغي أن يكون أول الأفعال الصلاة.»

2 ـ «ثم يجب على الطبيب أن ينعطف من صلاته إلى قراءة جزء من كتب شرعه، إذ هو الآمر له بالخيرات والباعث له على الصالحات»

والمؤلف هنا يقول كتب الشرع ولم يحدد الإسلامية منها مثلاً لأن الطبيب القارىء لهذا الكتاب قد يكون من شرائع أو أديان أخرى.

وشيء من كتب الطب:

«ثم يعدل إلى قرءاة ما قد رتبه له من كتب الطب حسب ترتيب القدماء لذلك حتى يزداد معرفة ودراية بصناعته..

ثم يخرج إلى مرضاه:

«فإذا توجه له الخروج خرج بنية صادقة إلى مرضاه الذين قد نالتهم أنواع المكاره وعيونهم ساهرة من عظم البلاء في حال ما كان هو نائماً معافى..

ثم يذكر كيفية محادثة المريض واستجوابه وفحصه حتى يتم مداواته، ويزوده بنصائح حول محادثة الناس ومجالسة مختلف الأهواء والأمزجة وألاّ تشغله الدنيا واللهو أو تنحرف به أهواؤه فيغفل عن واجبه الإنساني:

«ولا ينبغي للطبيب أن يجاذب النساء لئلا يسقط عند العامة والرؤساء ولا يصح للطبيب كسب الأموال من التجارة لئلا يقطعه عن العلم ويكسبه الخسارة، ولا يصلح للطبيب التشاغل باللعب والملاهي لئلا يسخف ويصير واهياً.»

الباب الثالث:

«فيما ينبغي للطبيب أن يتوقاه ويحذره.»

وفي هذا الباب يقدم المؤلف أمثلة للمتناقضات التي يقع فيها الطبيب كل يوم بين المريض وطبيعة مرضه وبين رغباته ورغبة أصول الطب والمهنة.

وينبغي للطبيب أن لا يتبع إرادة المريض إذا لم تكن موافقة لصلاحه ولا ينبغي أن يحمله على ذلك رهبة منه ولا رغبة في حال، بل من الله يجب أن

يرهب وإليه يجب أن يرغب».

«ولا ينبغي لك أن تُخْدَعَ بجَزَعِ امرأة تراها مكروبة فزعة من حملها فترحمها وتعطيها دواء يسقط جنينها، فإنه إن لم تفزع من الله تعالى ولا وجه لقتل الجنين بل يجب تربيته ولتربيته أجر عظيم..

الباب الرابع:

«حول خدمة المريض والممرضين والمشرفين على رعايته».

الباب الخامس:

«في آداب عواد المريض».

يخصصه المؤلف في وصف المرضى الذين يمكن زيارتهم ووقت ومدة الزيارة، وما ينبغي أن يقال وما لا يقال عند عيادة المريض، وما يحضره الزائر معه للمريض مما يسر له ويبعث فيه الأمل في الشفاء.

الباب الحادي عشر:

«فيما ينبغي أن يعمله المريض مع عوادة».

الباب الثاني عشر:

«في شرف صناعة الطب».

الباب الرابع عشر:

«في نوادر جرت لبعض الأطباء».

الباب السادس عشر:

«في امتحان الأطباء».

في هذا الباب يفرد المؤلف عدة صفحات في كيفية استجواب الطبيب واستدراجه من المعلومات البسيطة في التشريح وعلم وظائف الأعضاء، إلى الأسئلة حول طرق الفصد وقدح العين وتجبير الكسور وغيرها. ثم امتحانه نظرياً بما درس من كتب أصول صناعة الطب أي كتب جالينوس وأبقراط، وما

حفظ من أسمائها ومحتوياتها، وبذلك يمكن معرفة المواظب المثابر المغرم بمهنته ويفتضح الدخيل المنتحل لها.

الباب الثامن عشر:

«في التحذير من خدع المحتالين الذين يتسمون باسم الطب، والفرق بين خدعهم والحيل الطبية.»

وهنا يستعرض المؤلف مختلف الحيل التي يستعملها المشعوذون كطرق للعلاج ولابتزاز أموال البسطاء منها:

1 ـ يتصنعون لباس وحركات وكلام أهل الطب ويقتنون آلاتهم تقليداً لهم.

2 ـ يركبون من الأدوية البسيطة والمركبة تشبه الحقيقة ولكنها مزيفة.

3 ـ يشقون بعض أعضاء الجسم ويستخرجون منها أوراقاً كانوا قد أخفوها بأيديهم.

4 ـ يمصون بأنبوب صغير الأذن أو الأنف أو العين فيستخرجون منها الدود الكثير وقد سبق أن أخفوه في هذه الأنابيب.

5 ـ يخلطون المواد الضارة بالجسم والسموم التي قد تقتل أو تعيق بعض الحواس.

6 ـ لهم من طرق الملاطفة والتملُّق ما يوصلهم إلى ذوي الجاه والسلطان.

ويختتم المؤلف هذا الباب بالاجابة عن سؤال مهم وهو: هل يجوز للطبيب (النفسي) أن يجري الحيل لشفاء مرضى الوهم والاكتئاب والوساوس.

فيجيب بنعم ويورد قصة جالينوس الذي دس حية في ما استفرغه مريض كان يعتقد أنه ابتلع حية وهي قابعة في معدته، وقد شفي بعد هذه الحيلة البارعة.

وفي نهاية الكتاب أورد المحقق فهارس للأعلام والمواد الطبيعية والمصطلحات الفنية العلمية الواردة في الكتاب، وقد سبق أن وضح المنهج

الذي اتبعه في التحقيق واستخراج معاني ومدلولات الكلمات التي يزودنا بها في كل صفحة بهوامش سهلة ميسرة دون إثقال وإسهاب ممل. كما اتبع الأراء الحديثة في التحقيق ومنها الترقيم المسلسل لكل الهوامش في الكتاب.

الخاتمة:

هذا الكتاب يقرأ في كل وقت وكل عصر فعلى الرغم من مرور عشرة قرون على تأليفه فإن ما فيه من عبر وقصص ومتناقضات وأوجه الصلة بين الطبيب والمريض وكل من كان حولهما من الناس هو نفسه ما نراه اليوم وسنراه غداً أيضاً، والنصائح التي يقدمها للطبيب من حيث احترام زملائه ومهنته وما ينبغي أن يتحلى به من صفات هي من الأمور المتعارف عليها والمطلوبة في كل مراجع آداب وسلوك مهنة الطب في العالم الحديث.